في شهر رمضان المبارك من السنة الثامنة للهجرة ، وقع فتح مكة **وهو فتح تميز بطابع خاص في سجل التاريخ الحربي الإسلامي ، فهو مثال** كامل لأرقى مراتب الفكر العسكري والسياسي معاً . ليس في تاريخ الاسلام فحسب ، بل في تاريخ الإنسانية جمعاء ..

فلقد كسب الرسول القائد صلى الله عليه وسلم أكبر موقعة في تاريخ الإسلام من غير حرب ومن غير إراقة دماء ، وعاد المستضعفون الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله إلى بلدهم تحت أعلام الإسلام والنصر ، وظهرت فيها سماحة الإسلام بأجلى معانيها ، واكتملت فيها أركان النظرية الاسلامية في «إدارة الحرب»⁽¹⁾ ..

الفن الحربي الإسلامي في فتح مكة

الاستاذ / محمد جمال الدين محفوظ

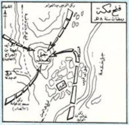
فتح مكة
رمضان سنة ٨ هـ
ركن الزبير بن العوام
الشمال
ركن أبي عبيدة بن الجراح
ركن سعد بن عبادة (الأنصار)
جبل أبي قبيس
جبل خندمة
ركن خالد بن الوليد

الظروف الاستراتيجية قبل الفتح

وقعت خلال العامين السابقين على هذا الفتح عدة أحداث ذات أبعاد استراتيجية هي مايلي :

١ — صلح الحديبية

وقد وقع في ذي القعدة للسنة السادسة للهجرة وكانت أهم نتائجة :

١ — اعتراف قريش بالمسلمين طرفا مساويا لها ، وهذا أول اعتراف بالدولة الإسلامية من أشد أعدائها وأقواهم في الحجاز .

٢ — فتح المجال أمام الرسول صلى الله عليه وسلم لمحالفة القبائل التي لم تكن مطمئنة إلى محالفته لقوة قريش ولوجود الكعبة في مكة ، وبذلك قوي جانب المسلمين .

٣ — التفريق بين قريش وحلفائها الطبيعيين ـ يهود خيبر ـ الذين كانوا لا ينفكون يحرضون القبائل على الرسول صلى الله عليه وسلم .

٤ — تحقيق الاستقرار الذي أمَّن التفرغ للدعوة وانتشار الإسلام .

٥ — نجاح المسلمين في الحصول على الحياد المسلح : المسلمون محايدون ومحافظون على عهودهم ، بينما استمر في التعرض على قريش مُشرَّدُو المسلمين الفارون بدينهم من قريش ، ولا يستطيع المسلمون إيواءهم بمقتضى العهد .

٦ — إثارة المسلمين للرأي العام ضد قريش لصدها المسلمين عن زيارة البيت الحرام وتعظيمه ، مما أكسب المسلين عطف كثير من القبائل وكثير من قريش نفسها ، وكثير من أهل المنطقة المجاورة لقريش ، مما كان له آثاره في تسهيل عملية فتح مكة عليهم فيما بعد ..

٢ — غزوة خيبر والقضاء على اليهود عسكريًا في الجزيرة

وقد وقعت هذه الغزوة في المحرم من السنة السابعة للهجرة وكانت نتيجتها التخلص من أقوى أعداء قاعدة الإسلام في المدينة ، وبالتالي تأمين «المنطقة الشمالية» من الجزيرة لصالح «الحركة جنوبًا» فيما بعد .

٣ — غزوة مؤتة

وقد وقعت في جمادي الأولى من السنة الثامنة للهجرة . وكان من نتائجها أن ازداد انتشار الإسلام بين القبائل العربية المتاخمة للشام التي نظرت إلى فِعَال المسلمين بإعجاب شديد ، وبين قبائل نجد المتاخمة للعراق .

٤ — اضطراب أحوال الدولة البيزنطية

وليس أدل على ذلك من أن أحد عمال هِرقْل — وقد كُلف أن يدفع للجيش رواتبه — أخذ يصيح في وجه عرب الشام الذين اشتركوا مع الروم في قتال المسلمين في مؤتة : «**انسحبوا ، فالإمبراطور لايجد مايدفع منه رواتب جنده إلا بمشقة ، وليس لديه لذلك ما يوزعه على كلابه**» .

ولقد ساعد اضطراب الأحوال في بيزنطة على أن ينصرِفَ العرب عن الإمبراطور وعن جنده ، وأن يزداد ضياء الدين الجديد أمامهم نورا يهديهم إلى صدق الحقيقة السامية التي يبشر الناس بها .. لذلك دخل في الإسلام في هذه الفترة ألوف من سُليم وعلى رأسهم العباس بن مرداس ، ومن أشجع وغطفانَ الذين كانوا حلفاء اليهود **حتى نكب اليهود في خيبر، ومن عبس ومن فزارة...كل هذه العوامل كانت سببًا في** استتباب الأمر للمسلمين في شمال المدينة إلى حدود الشام ، وفي ازدياد الاسلام عزة وقوة ومَنَعة ، وفي تأمين قاعدة الانطلاق نحو الهدف الاستراتيجي (٢) الكبير : «مكة المكرمة» ..

٥ — أحوال قريش خلال تلك الفترة

أدى انتشار الإسلام بين قسم كبير من القبائل ومن ضمنها قريش ، وبقاء القسم الآخرعلى الشرك ، إلى تفرق كلمتها واستحالة جمع هذه الكلمة على حرب المسلمين ، ولم يبق في قريش زعيم مسيطر يستطيع توجيهها إلى مايريد حين يريد .

المسلمون لايخضعون إلا لأوامر الإسلام . والمشركون فيها بين متطرف يدعو للحرب مهما تكن نتائجها ، ومعتدل يعتبر الحرب كارثة تحيق

بقريش .. وفقدت قريش كثيرًا من حلفائها سواء من القبائل العربية التي حالفت المسلمين بعد عهد الحديبية ، أو من اليهود ، كما أنها تصورت أن « مؤتة » تُعد هزيمة قضت على المسلمين وعلى سلطانهم حتى لم يبق إنسان يأبه لهم أو يقيم لعهدهم وزنا ، وراودها الأمل في إنهاء حالة الهدنة التي أعقبت عهد الحديبية ، وفي الإعداد لحرب المسلين ومن في عَهْدهم من غير أن تخشى من الرسول صلى الله عليه وسلم قصاصًا .

موقف الجانبين قبل المعركة

قريش

أراد بنو بكر حلفاء قريش أن يأخذوا بثاراتهم القديمة من بني خزاعة حلفاء المسلمين ، وحرّضهم على ذلك متطرفو قريش بقيادة عِكرمة بن أبي جهل وبعض سادات قريش ، وأمدوهم بالرجال والسلاح سرًّا ؛ فقامت بنو بكر بهجوم مباغت على بني خزاعة ، فأوقعوا فيهم بعض الخسائر في الأرواح والأموال ، ولما التجأت خزاعة إلى البيت الحرام ، طاردتهم بنو بكر مصممة على القضاء عليهم غيرَ مكترثة بعهد الحديبية ؛ وبهذا انتهت الهدنة بين قريش وحلفائها من جهة ، وبين المسلمين وحلفائهم من جهة أخرى ، وكان السبب في انتهائها قريش وبنو بكر .

لكن حكماء قريش وذوى الرأي فيها ، مالبثوا أن قدروا ما عرَّضهم له عكرمة وَمَن معه من خطر ، فأوفدوا أبا سفيان إلى المدينة لتثبت العقد وليزيد في المدة ، ولعل المدة كانت سنتين فكانوا يريدونها عشرا . لكن أبا سفيان أخفق في سفارته ولم يجد إلا الصدود والإعراض من كل من لقيه ، فحين توجه إلى ابنته أم حبيبة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم وأراد ان يجلس على فراش الرسول ، طوت أم حبيبة الفراش قائلة لأبيها : «**هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجل مشرك نجس . فلم أحب أن تجلس عليه .» ثم ذهب ليكلم الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليه شيئا . فكلم أبا بكر ليكلم له النبي فأبى . فكلم عمر بن الخطاب فأغلظ له في الرد وقال : «أنا أشفع لكم إلى رسول الله ! ، فوالله لو لم أجد إلا الذر**(٣) **لجاهدتكم به»** .. وذهب إلى علي بن أبي طالب واستشفعه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأنبأه علي في رفق أنه لايستطيع أحد أن يرد النبي عن أمر إذا هو

اعتزمه ، فاستشفع أبوسفيان فاطمة أن يجير ابنها الحسن بين الناس ، فقالت : ما يجير أحداً على رسول الله ...

واشتدت الأمور على أبي سفيان فاستنصح عليًا ، فقال له : «والله ما أعلم شيئا يغني عنك شيئا ، لكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجِرْ بين الناس ثم الحق بأرضك ، وما أظن ذلك مغنيًا ولكني لا أجد لك غيره ، فذهب أبو سفيان إلى المسجد ، وهناك أعلن أنه أجار بين الناس ، ثم ركب راحلته وانطلق عائدا إلى مكة وقلبه يفيض أسى مما لقى من هوان وصدود وفشل ، فلما قصَّ على قومه ما لَقِيَ في المدينة وما أجار بين الناس في المسجد بمشورة عليّ ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يُجِزِ جواره ، قال قومه : «ويلك !! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك» .

المسلمون

سارع عمرو بن سالم الخزاعي بالتوجه إلى المدينة حاملاً أخبار نقض قريش وبني بكر لعهد الحديبية ، فلما وصلها قصد المسجد وقصَّ على الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما أصاب خزاعة من بني بكر وقريش في مكة وخارجها ، فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم : «نصرت ياعمرو بن سالم» .

كذلك خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة ، حتى قدموا المدينة فأخبروا النبي صلى الله عليه وسلم بما أصابهم ، فعزم عليه السلام على فتح مكة .

تحرك المسلمين لفتح مكة

ترك المسلمون المدينة قاصدين فتح مكة ، وكان الجيش مؤلفا من الأنصار والمهاجرين وسُليم ، ومُزَينة ، وغطفان ، وأسلم ، وطوائف من قيس وأسد وتميم وغيرها من القبائل الأخرى ، في عدد لم تعرفه الجزيرة العربية من قبل (حوالي عشرة آلاف رجل) وكلما تقدم الجيش نحو هدفه ازداد عدده بانضمام مسلمي القبائل التي تسكن على جانبي الطريق إليه ..

ومع كثافة هذا الجيش وقوته وأهميته ، فقد بقِيَ سر حركته مكتومًا لاتعرف قريش عنه شيئاً ، فإنها وإن كانت تعتقد أن الرسول صلى الله عليه وسلم في حلٍّ من

مهاجمتها ، لكنها لم تكن تعرف متى وأين وكيف سيجرى الهجوم المتوقع .

وصل الجيش مساء موضع «مرّ الظهران» على مسافة أربعة فراسخ من مكة ، فعسكر هناك ، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يوقد كل مسلم نارا حتى ترى قريش ضخامة الجيش دون أن تعرف هويّته ، فيؤثر ذلك على معنوياتها وتستسلم للمسلمين دون قتال ، وبذلك يؤمن الرسول صلى الله عليه وسلم هدفه في دخول مكة دون إراقة الدماء .

سير عملية الفتح

قسم الرسول صلى الله عليه وسلم قواته لدخول مكة من جهاتها الأربع :

- **من الشمال : رتل الزبير بن العوام .**
- **من الجنوب : رتل خالد بن الوليد .**
- **من الغرب : رتل سعد بن أبي عبادة (قوات الأنصار) .**
- **من الشمال الغربي من اتجاه جبل هند : رتل أبي عبيدة بن الجراح (قوات المهاجرين) .**

وجعل عليه الصلاة والسلام مثابة اجتماع القوات بعد الفتح في منطقة جبل هند .

ودخلت قوات المسلمين مكة دون أن تلقى مقاومة ، إلا جيش خالد بن الوليد فقد واجه مقاومة من متطرفي قريش مع بعض حلفائهم من بني بكر في منطقة «الخندمة(٤)» ، لكن خالدا لم يلبث أن فرقهم .

واستسلمت المدينة المقدسة للمسلمين وفتحت أبوابها لهم .

خسائر الطرفين

- **المسلمون** : شهيدان فقط **(من رتل خالد بن الوليد)** .
- **المشركون** : ثلاثة عشر قتيلاً وبعض الجرحى .

الدروس المستفادة

أولاً : مزية المبادرة

لقد نقضت قريش العهد الذي أقرّت بنوده في عهد الحديبية ، وذلك عمل ينطوي ولاشك على نوايا عدوانية تتجاوز إطار عملية ثأرٍ بين بني بكر وبني خزاعة ولا تنحصر فيه ؛ ولابد أن يفطن القائد المحنك إلى أن قريشا تبيّت النية لتحقيق هدفها الاستراتيجي الكبير وهو القضاء على الدين الجديد بالهجوم على قاعدته بالمدينة .

من أجل ذلك رأينا كيف أخذ الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بزمام المبادرة وقرر على الفور أن يهاجم قريشا في عقر دارها .

ثانيًا : التخطيط على أساس فتح مكة بلا قتال

كان قرار الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتم فتح مكة بلا قتال ، فعهد إلى أمرائه أن لايقاتلوا إلا من قاتلهم (٥) ، وكان عليه الصلاة والسلام حريصا على ذلك كل الحرص ، وهو ماينطق به أسلوبه صلى الله عليه وسلم في إدارته للمعركة والسيطرة على كل مرحلة من مراحلها كما سيظهر فيما بعد ، ولقد بلغ من حرصه صلى الله عليه وسلم على تجنب القتال أنه بلغه أن سعد بن عبادة الذي كان يقود رتلا من الأرتال الأربعة التى يتألف منها جيش المسلمين قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة» ، فأخذ الراية منه ، ودفعها إلى ابنه قيس بن سعد ، وكان رجلا ضخما لكنه كان أهدأ من أبيه أعصابًا ، وأكثر منه سيطرة على نفسه ، حتى يحول دون اندفاع سعد لإثارة الحرب .

دفع العدو إلى الاستسلام دون مقاومة

وبدهى أن التخطيط على أساس الفتح بلا قتال لا يكفي وحده لتحقيق هذا الهدف ، إذ لابد من اتخاذ التدابير التى تمنع العدو من المقاومة والقتال ، وهذا هو مافعله الرسول القائد صلى الله عليه وسلم ، فكان جمعه بين الأمرين (تجنب القتال من جانبه ومنع العدو من القتال) آية من آيات حسن القيادة وإدارة الصراع على أعلى

مستوى، ولو أنه لم يجمع بين هذين الأمرين ، واكتفى **بالتخطيط** وإصدار الأمر لجيشه بعدم القتال ، ولم يحرص في الوقت نفسه على منع الجانب الآخر من المقاومة لما تحقق له ما أراد .. فلننظر كيف دفع عليه الصلاة والسلام قريشًا إلى الاستسلام دون مقاومة :

١ — استغلال الأثر النفسي للمباغتة :

اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم كل التدابير التي أمنت له مباغتة ممتازة للغاية كانت **من أهم العوامل التي زعزعت إرادة قريش على المقاومة والقتال** ، وتعتبر المباغتة التي تحققت في غزوة الفتح «مباغتة استراتيجية»⁽٦⁾ كما يعرفها العسكريون ، ولا ينجح في تحقيقها إلا القلائل من القادة الأفذاذ :

- فقد حَرَصَ الرسول على كتمان قراره بالخروج لفتح مكة حتى عن أقرب المقربين إليه ، فلم يبح به لأبي بكر أقرب أصحابه إلى نفسه ، ولا لعائشة بنت أبي بكر أحب نسائه إليه⁽٧⁾ ، وبقيت نواياه سرا مكتومًا حتى تمت جميع الاستعدادات للحركة . فحين عزم على الخروج قال لها : «جهزينا وأخفي أمرك» وقال : «اللهم خذ من قريش الأخبار والعيون حتى نأتيهم بغتة» .. ودخل أبو بكر رضى الله عنه على ابنته عائشة وهي تجهز الرسول صلى الله عليه وسلم (تصنع له طعاما) فقال : يا عائشة ، أهمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغزو ؟ قالت : ما أدري ، لعله يريد بني سليم ، لعله يريد ثقيفا ، لعله يريد **هوازن !!**

- وحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على الحيلولة دون تسرب المعلومات عن حركته إلى قريش ، فبعث العيون والأرصاد والمفارز (**الدوريات**) داخل المدينة وخارجها لهذا الغرض ، وقد مكنت هذه التدابير من كشف أمر الرسالة التي أراد حاطب بن بلتعة إرسالها إلى قريش تحمل خبر خروج المسلمين ، فبعث عليه الصلاة والسلام على بن أبي طالب والزبير بن العوام ، فأدركا المرأة التي كانت تحمل الرسالة وأخذاها منها .

- وبقي النبي صلى الله عليه وسلم يقظا كل اليقظة حتى وصل ضواحي مكة ، ونجح بترتيباته من حرمان قريش من معرفة تدابير المسلمين حتى لقد تعذر عليها معرفة هوية الجيش الكبير الذي عسكر على أربعة فراسخ من مكة ، فقد أوقد عشرة آلاف

مسلم نيرانهم ، ورأت قريش تلك النيران تملأ الأفق البعيد ، فأسرع أبوسفيان بن حرب وبُديل بن ورقاء وحكيم بن حزام بالخروج باتجاه النيران حتى يعرفوا مصدرها ونوايا أصحابها وأهدافهم ، فلما اقتربوا من موضع عسكر المسلمين ، قال أبو سيفان لصاحبه بديل : «مارأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرًا .. فرد عليه بديل : «هذه والله خزاعة حمشتها الحرب» ، فلم يقتنع أبو سفيان بهذا الجواب فقال : «خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها» .

◦ وحينما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين بالاستعداد للخروج لم يحدد الهدف ولا المهمة ، بل إنه أجرى عملية خداعية لإخفاء النوايا الحقيقية وذلك بارسال سرية أبى قتادة الأنصاري إلى بطن إضم ، وقد قال كعب بن مالك يصف أسلوب الرسول صلى الله علية وسلم في العمليات الخداعية : «ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة ، إلا ورّى بغيرها .

٢ — تجريد زعيم قريش من إرادة القتال

واستطاع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يغزو — قبل المعركة — عقل وقلب ونفس زعيم قريش حتى جرده من إرادة المقاومة والقتال . ففضلاً عما تعرض له أبو سيفان من إعراض وإهمال وهوان حين قدم المدينة ؛ فقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم عمه العباس باحتجازه في مدخل الجبل إلى مكة ، حتى يمر به جنود المسلمين ، فيحدث قومه عما رآه عن بينة ويقين ، فيقضي على أي أمل لديهم في المقاومة .. قال العباس :

«خرجت بأبى سيفان حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله ، ومرت القبائل على رايتها ، كلما مرت قبيلة قال : ياعباس ، من هؤلاء ؟ فأقول : سُلَيم . فيقول : مالي ولسليم ؟ ثم تمر به القبيلة ، فيقول : ياعباس ، من هؤلاء ؟ فأقول : مُزينة . فيقول : مالى ولمزينة ؟ حتى نفدت القبائل ، ماتمر به قبيلة إلا سألني عنها ، فاذا أجبته قال : مالي ولبني فلان ... حتي مر الرسول صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء[٨] وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يُرى منهم إلا الحَدق من الحديد . فقال : سبحان الله ! ياعباس ، من هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار .. قال : ما لأحد بهؤلاء من قِبل ولا طاقة ! والله ياأباالفضل ، لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيما ! ! قال العباس :

يا أباسفيان ، إنها النبوة . قال : نعم ، إذن ؟.

عند ذاك قال العباس لأبي سفيان : النجاء إلى قومك .. فأسرع أبوسفيان إلى مكة وقال لقومة : **يامعشر قريش ، هذا محمد جاءكم فيما لاقبل لكم به»** .

ومما يدل على حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على إيقاع أكبر قدر من التخويف والضغط النفسي على أبي سفيان لتجريده من إرادة المقاومة والقتال وتجريد قريش بالتالي ، اختياره صلى الله عليه وسلم «لمضيق الوادي» بالذات لوقوف أبي سفيان . فمرور الجيش في مضيق يختلف عن مروره في الأرض المكشوفة ، فالمضيق يجعل أباسفيان يرى قوة الجيش عن كثب وهي تمر عليه . أما الأرض المكشوفة فسوف يتفرق فيها الجيش ، فلا يقع التأثير المعنوي المطلوب .

زعزعة ثقة قريش في قدرتها على المقاومة

فقد نظمّ الرسول صلى الله عليه وسلم جيش المسلمين بطريقة أضعفت الدافع لدى المشركين إلى القتال وجعلتهم يترددون في المقاومة .

فقد كان الجيش يتألف من المهاجرين والأنصار ، ومسلمي أكثر القبائل العربية المعروفة يومذاك : ألف رجل من بني سُليم ، وألف رجل وثلاثة رجال من مزينة ، وأربعمائة من بني غفار ، وأربعمائة من بني جهينة ، وأربعمائة من أسلم ، وعدد من تميم وأسد وقيس وغيرها من القبائل العربية الأخرى ..

هذا التنظيم أصاب المشركين بالتردد في الإقدام على القتال . لأن كل قبيلة لها في جيش المسلمين عدد كبير ، بل إن كثيرًا من القبائل تعتبر نجاح هذا الجيش نجاحًا لها على الرغم من اختلاف العقيدتين ، والأكثر من ذلك ، فإن انتصار هذا الجيش لا يعتبر فخراً لقبيلة دون أخرى، كما أن فشل أية قبيلة في التغلب عليه، لا يعتبر عارا عليها ، لأن هذا الجيش لم يكن لقبيلة دون أخرى ، بل لم يكن للعرب دون غيرهم ، بل كان للإسلام ولمعتنقي هذا الدين من العرب وغير العرب .

ومما زاد من إضعاف قدرة قريش على المقاومة أن الرسول صلى الله عليه وسلم

جعل خطته لدخول مكة بحيث تؤمن تطويقها من جهاتها الأربع كما ذكرنا ، ويؤدي ذلك إلى تحقيق هدفين في غاية الأهمية :

١ — ضمان القضاء على أية مقاومة في أية جهة من مكة في الحال لوجود المسلمين في كل جهة من جهاتها .

٢ — تشتيت قوات قريش إلى أقسام لمقاومة كل رتل من أرتال المسلمين على انفراد ، مما يحرمها من تركيز قواتها وحشدها في جبهة واحدة ، ويجعلها ضعيفة في كل مكان .

إعطاء الأمان لقريش إن هي استسلمت

وكان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم قد خرج من معسكر المسلمين ليخبر قريشا بالجيش الضخم الذي جاء لقتالها والذي لاقبل لها به ، حتى يؤثر على معنوياتها ويضطرها للتسليم دون قتال ، فيحقن بذلك دماءها ويؤمن لها صلحا شريفا ويخلِّصها من معركة فاشلة معروفة النتائج سلفا ، فلقى في طريقه أباسفيان فأخبره بوصول جيش المسلمين ، ونصحه بأن يلجأ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ينظر في أمره قبل أن يدخل الجيش مكة صباح غد فيحيق به وبقومه العقاب .

فقال العباس للرسول صلى الله عليه وسلم : يارسول الله ،إن أباسفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا .. **(وكان أبو سفيان قد أسلم ليحقن دمه قبل لقائه بالرسول صلى الله عليه وسلم)** .

قال عليه الصلاة والسلام : **«نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن»** .

فلما لقى أبوسفيان قومه قال : «يامعشر قريش ، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن» .. فقالت قريش : قاتلك الله ، وما تغنى عنا دارك ؟ .. قال : «ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن» .

وهكذا كان إعطاء **الأمان** لقريش — على لسان زعيمها أبي سفيان — إن هي استسلمت بلامقاومة بمثابة «الضربة النفسية القاضية» على إرادتها القتالية ... وأصبحت مكة تنتظر دخول المسلمين : اختفى الرجال وراء الأبواب الموصدة ، واجتمع بعضهم في المسجد الحرام ، وبقى المتطرفون مصّرين على القتال .

رابعًا : السياسة والاستراتيجية

ثم إن قريشا — بالإضافة إلى كل ماسبق — كانت تشعر بأنها تقف وحدها **لا حليف ولانصير** . وذلك لأن الرسول القائد صلى الله عليه وسلم جرّدها من الحلفاء والمناصرين نتيجة للسياسة التي اتبعها بعد الهجرة والتي قامت على عقد الاتفاقات والمعاهدات مع مختلف القبائل لكفالة حرية الدعوة وحسن الجوار والمعاملة ، فكانت النتيجة المباشرة لتلك المعاهدات حرمان قريش من قوّى كان يمكنها أن تتحالف أو تشد أزرها . أضف إلى ذلك أن انتشار الإسلام بين قسم كبير من القبائل ومن ضمنها قريش ، ينطوى على «تحييد» للقسم الأخر الذي بقى على الشرك ، وبخاصة بالنسبة للمعتدلين منهم الذين يرون أن لا جدوى من القتال ويعتبرون الحرب كارثة تحيقُ بهم .

خامسًا : قمة الاستراتيجية : النصر بلا قتال

لقد اتفق علماء الاستراتيجية على أن الغرض النهائى من الحرب يجب أن يكون الحصول على «سِلْمٍ أفضل» ، وأنه من الضروري أن يضع القادة في اعتبارهم — وهم يديرون دفة الحرب — «السلم الذي **يرغبون** فيه» .

ويقررون أنه عند بلوغ الهدف العسكري (**أي النصر في القتال**) فإن القادة الذين يغالون في فرض شروطهم ومطابهم تجاه الجانب الآخر لن يحصلوا على السلام الحقيقي المطلوب ، لأنهم بذلك يهيئون الأسباب لقيام «العدو» بمحاولة لقلب الاستقرار الذي حصلوا عليه .

من أجل ذلك أصبحت **مبادئ** الاستراتيجية الحقة تنادي بما يلي :

«عليك وأنت تحارب ، أن تهيئ الظروف لقيام سلم حقيقي ومستقر بعد انتهاء الحرب ، ولاتستخدم من أساليب القهر والتسلط الغاشم ، سواء في أثناء الحرب

أو بعدها ، ما يؤدي إلى أن يكون السلم مُشوَّها لاحتوائه على جرائم حرب تالية »(٩)

◆

◦ وفي التاريخ أدلة قاطعة على أن الشطط والمبالغة في إدارة الحروب لا يهيئان مناخا صالحا لقيام سلام مستقر أو دائم :

١ ـــ فإن سلسلة الحروب الواسعة ـــ على رأسها الحرب الثلاثينية ـــ دفعت رجال السياسة في القرن الثامن عشر إلى إدراك هذه الحقيقة ، وإلى إدراك ضرورة كبح جماح أطماعهم وأهوائهم الخاصة عندما يشتبكون في حرب ، وضرورة «تحديد» الحرب وآثارها ، بمعنى تجنب الشطط والمبالغة في كل الأعمال التي قد تطيح بالآمال المعقودة على حالة مابعد الحرب . ومن ناحية أخرى فقد أدى إدراكهم هذا إلى أنهم أصبحوا أكثر استعدادا للتفاوض على السلم عندما يبدو النصر بعيد المنال(١٠) .

٢ ـــ وامتدت حروب نابليون قرابة العشرين عاما دون أن تحقق سلاما أو استقرارا ، فقد كان نابليون يتصور تحقيق سلم دائم عن طريق الحرب تلو الأخرى ، ولكن النتيجة كانت على عكس تصوره ، بل إن الأمر وصل إلى حد انهيار الإمبراطورية النابليونية .

٣ ـــ وما حدث في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـــ ١٩١٨ يعتبر درسا لا ينسى في هذا المجال ، فإن المعاملة القاسية التي لقيتها ألمانيا على يد الحلفاء المنتصرين تحت شعار «ويل للمغلوب» ، والعقوبات الاقتصادية التي أثقلت كاهل الاقتصاد الألماني ، جعلت السلام الذي جاء بعد تلك الحرب «مشوها يحمل معه جرائم حرب تالية» **(كما يقول رجال الاستراتيجية)** .. وهذا هو ما حدث فعلا .. فإن تلك القسوة بالذات ، كانت هي الدافع الأساسي لهتلر في العمل بكل الوسائل لإنهاض ألمانيا ، وبالتالي سرعة نشوب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩(١١) .

حروب الإسلام الفاضلة

تلك كانت بعض دروس التاريخ التي تنهض دليلا على أن أساليب القهر والتسلط الغاشم في الحرب ، وأن تطبيق شعار «ويل للمغلوب» ، كلها تؤدي إلى سلام زائف غير مستقر ، وإلى نشوب حرب جديدة تكتوي البشرية بنارها .

لكن في هذا التاريخ ، صفحات مشرقة لحروب كانت «خالية من جرائم حرب أخرى» .. تلك هي حروب الإسلام .

فإن حروب الإسلام حروب فاضلة وعادلة ، لأنها مقيدة بقانون السماء ، ولا يمكن أن يبيح قانون الله انتهاك الحرمات وإهدار الكرامة الإنسانية والقهر والتسلط الغاشم :

١ — فالجهاد فضيلة إنسانية عليا ، والباعث إليه فضيلة أيضا ، إذ هو إعلاء كلمة الله ورد الاعتداء ، ويستقيم مع هذا المعنى أن تكون الفضيلة الإسلامية واجبة الرعاية في الجهاد حربا وسلما .

٢ — وحروب الإسلام بدوافعها السلمية الفاضلة وآدابها وإنسانيتها وسماحتها ، لم تنطو على ما يقطع الأمل في سلم حقيقي ومستقر ، بل كانت تجعل جراح المغلوبين تلتئم بسرعة .

٣ — والأكثر من ذلك ، أنها كانت تحول اتجاهاتهم من أشد الناس عداوة للإسلام ، إلى أحرص الناس عليه وعلى رفع راية الجهاد في سبيله وتلك صورة رفيعة انفرد بها الإسلام وليس في التاريخ ما يتسامى إليها .

٤ — وفي عصر الفتوحات سرعان ما صارت البلاد المفتوحة موئلا للإسلام وصار أهلها من دعاته وحملة لوائه ومن المجاهدين في سبيله ، ولقد لفت ذلك نظر المشير مونتجمري (في كتابه الحرب عبر التاريخ) وأثار دهشته فقال : «من العجيب أن القوة الرئيسية للجيوش الإسلامية في فتح أسبانيا بين عامي ٧١٠ — ٧١٣ كانت مشكلة من الليبيين والتونسيين» .

• إن فتح مكة مثال كامل لحروب الإسلام الفاضلة ، التي تتجاوز مبادئها وآدابها ماقرره خبراء الاستراتيجية وتتركه وراءها عاجزا متخلفا .

إن كل الظروف كانت مهيأة أمام المسلمين لتحقيق نصر عسكري ساحق على قريش يقضي عليها قضاء لاتقوم لها قائمة بعده أبدا ، ولوكان همُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُحقِّق النصر على أعدائه دون أدنى اعتبار لما بعد النصر ، ما نفذ ذلك المخطط الذي فتح به مكة بلا قتال وجاء ناطقا بالعبقرية السياسية والعسكرية معا .

• ويعرف رجال الاستراتيجية نظرية فيلسوف الحرب المشهور **كلاوزفتز** في معنى الاستراتيجية العسكرية . وهي النظرية التي لا ترى وسيلة واحدة لتحقيق الأهداف في الحرب وهي « **القتال** »واستخدام « **الموقعة الحربية** » وكان مما قاله **كلاوز فتز** في هذا المجال مايلي : (١٢)

١ — ان لدينا وسيلة واحدة فقط في الحرب وهي « المعركة » .
٢ — من الضروري أن تكون فكرة « القتال » أساسا لتفكيرنا .
٣ — ان المعارك العظيمة والشاملة هي وحدها التي يكون لها أعظم النتائج .
٤ — يجب أن نصم آذاننا عن القادة الذين ينتصرون « دون إراقة الدماء » .

وهكذا ساهم **كلاوزفتز** في الانهيار الذي جاء بعد ذلك للقيادة ، اذ وقع تلامذته — وهم أقل تعمقًا منه — في خطأ الخلط بين الوسيلة والغاية من الحرب ، واستخلصوا من ذلك أنه يجب في الحرب أن تخضع كل الاعتبارات الأخرى لهدف « خوض معركة حربية حاسمة » وقد أدى ذلك مثلا في الحرب العالمية الأولى إلى عمليات دموية تشبه المذابح .

ولقد كان من أخطر أقوال كلاوز فتز قوله : « قد يتصور المحبون للخير بسهولة أنه توجد طريقة بارعة لنزع السلاح الذي في العدو والتغلب عليه دون إراقة كثير من الدماء ، وأن هذا هو الاتجاه السليم لفن الحرب . تلك غلطة يجب أن نمحوها ! ! » .

。 واذا كان من شأن المنتصر أن يستبد ويملي شروطه بدافع الغيظ والتشفي والانتقام والغرور بالقوة ، فإن الرسول القائد صلى الله عليه وسلم — على الرغم مما فعلت قريش ضد الاسلام والمسلمين — لم يفعل شيئًا من ذلك ، بل كان كل همه وكل قصده ، أن يؤلف قلوب المشركين ، ويجعلها تقبل على الاسلام الذي هو دين السلام .

لقد استسلمت قريش ، التي يعرف عليه الصلاة والسلام فيها من ائتمروا به ليقتلوه ، ومن عذبوه وأصحابه من قبل ، ومن قاتلوه في بدر وفي أحد ، ومن حاصروه في غزوة الخندق ، ومن ألّبوا عليه العرب جميعا ، ومن لو استطاعوا قتله وتمزيقه إربا إربا لما توانَوْا في ذلك لحظة ! .. لقد أصبحت قريش في قبضته عليه الصلاة والسلام وتحت قدميه ، أمره نافذ في رقابهم ، وحياتهم جميعا معلقة بين شفتيه ، وفي سلطانه هذه الألوف المدججة بالسلاح تستطيع أن تبيد مكة وأهلها في رجع البصر.

لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بالرجل ولا بالقائد الذي يعرف العداوة أو يريد أن تقوم بين الناس ، وليس هو بالجبار ولا بالمتكبر ، لقد مكنه الله من عدوه ، فماذا فعل ؟

لقد نهض عليه الصلاة والسلام والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد الحرام، فطاف بالبيت العتيق، وطهره من الأصنام والصور، ثم وقف على باب الكعبة وقريش تنتظر ماذا يصنع ، وقال: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم !» .

قالوا : خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم..

قال: «فإني أقول كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء»..

الهوامش

(١) إدارة الحرب اصطلاح لا يقتصر على الجانب العسكري من الصراع ، بل يشمل الجوانب الأخرى المتعلقة به كالسياسة والاقتصاد ، من أجل ذلك تتولى عملية إدارة الحرب القيادة العليا التي تجمع كل تلك الجوانب وتنسق بينها لتحقيق الغاية من الحرب .

(٢) الهدف الاستراتيجي هو الهدف الذي يسبب للعدو أثناء الصراع المسلح من الأضرار ما يؤدي إلى احداث تغييرات حادة في الموقف العسكري والسياسي ويؤثر تأثيرًا بالغا على تطور الصراع ككل .

(٣) الذَّرُّ : جمع ذرة وهي أصغر النمل .

(٤) الخندمة : جبل بأسفل مكة — راجع التفاصيل في معجم البلدان ٣ — ٤٧٠

(٥) سيرة ابن هشام ٤ — ٤٠٩

(٦) المبالغة أو المفاجأة هي احداث موقف لايكون العدو مستعدا له ، فإذا أمكن اخفاء «نية الهجوم ومكانه ودقته» كانت المباغتة كاملة ويطلق عليها : «الباغتة الاستراتيجية» ، وهي ليست بالأمر الميسور تحقيقه إلا بتخطيط يكون غاية في المهارة والحذق والخداع والسرية .. وتسمى المباغتة : «مباغتة تكتيكية» اذا وقعت في نطاق محدود أو محلي مثل مهاجمة العدو من اتجاه غير متوقع أو استخدام اسلوب جديد للقتال .

(٧) سئل النبي صلى الله عليه وسلم : يارسول الله ، أي الناس أحب إليك ؟ قال عائشة ، قالوا : إنما نعني من الرجال ، قال : أبوها ..

(٨) قال ابن هشام : وإنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها (سيرة ابن هشام ٣ — ٤٠٤) .

(٩) الاستراتيجية — الاقتراب غير المباشر — ليدل هارت .

(١٠) المرجع السابق .

(١١) The Causes of Wars - By Geoffrey Blainey.

(١٢) الاستراتيجية — الاقتراب غير المباشر — ليدل هارت .